موسوعة تاريخ مصر

مصر البيزنطية

إعداد: هشام الجبالي



مرحبا بأصدقائي في كل بقعة من أرض مصر.

أسمي **«نيل»** وُجدت منذ أن شق النهر مجراه في أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء في رحلات البناء الطويلة، وأرافق آباءكم في مسيرة العمل من أجل رقي مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصري فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضي النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسي لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقي والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة **«تاريخ»** كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها في أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدوني معكم عبر حكايات **«تاريخ»** وحوادث مصر وأخبارها.

موسوعة تاريخ مصر

المحرر : هشام الجبالي

الرسوم الداخلية : علاء حجازي

هاني طه - إيهاب وصفي

المراجعة اللغوية : شوقي ميكل

الجمع التصويري : المكتب العربي للمعارف

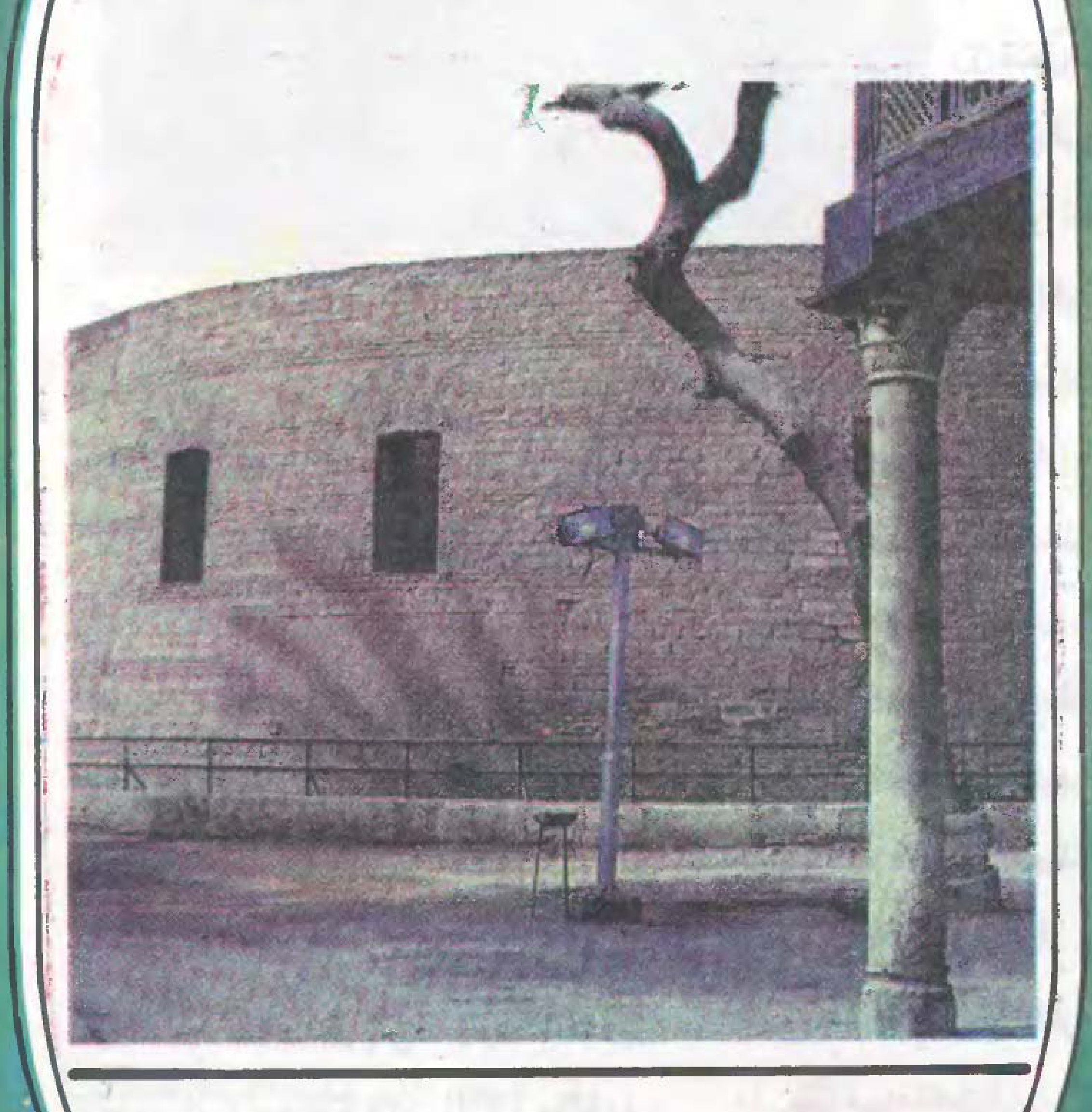
الإخراج : المكتب العربي للمعارف

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٤٤١

الترقيم الدولي : I.S.B.N:977-276-018-5

موسوعة تاريخ مصر

مصر البيزنطية



إعداد: هشام الجبالي

تمضى الأعوامُ تلوَ الأعوامِ ولا تزالُ بلادُكم تحيا مكبلةً بقيودِ الاحتلالِ الرومانيِّ تعانى وهى بلادُ الفراعنةِ العظامِ من تسلُّطِ حُكّامٍ أجانبَ فرضوا عليها سلطانَهم واستولَوْا بقوتِهِمْ على الجانبِ الأعظمِ من ثرواتِهَا وكنوزِ أراضيها، تهبُّ فى أرجائِهَا رياحُ الرفضِ والغضبِ وتشتعلُ فى صدورِ أبنائِها نيرانُ الثورةِ فتواجَهُ بجيوشِ روما وبطشِ جنودِهَا، وتدخلُ المسيحيةُ إلى ربوعِهَا وتجدُ على طولِ الوادى والدلتا من يُؤْمِنُ بمبادئِهَا ويعتنقُ تعاليمَهَا؛ فتقابَلُ باضطهادِ الأباطرةِ والولاةِ للمسيحيةِ والمسيحيين، ذلك الاضطهادُ الذى وصلَ فى عهدِ الإمبراطورِ ديكيوس عام ٢٤٩ إلى حدِّ توعُّدِ كلِّ أتباعِ المسيحيةِ بالتعذيبِ والقتلِ، مما أدى إلى فرارِ الكثيرين منهم إلى مستنقعاتِ الدلتا وكهوفِ الصحراءِ.

وإن كانت الإمبراطوريةُ الرومانيةُ قد عاشت سنواتِ رفعتِهَا وازدهارِهَا واحدةً من أعْظمِ وأكبرِ الممالكِ التى شهدها العالمُ على وجهِ العمومِ ما بين استيلاءِ قائدِهَا أكتافيوسَ على حُكمِ مصرَ عامَ ٣٠ قبلَ الميلادِ ووفاةِ إمبراطورِهَا ماركِ أوريليوسَ عامَ ١٨٠، فإنها سرعانَ ما سقطت مع بدايةِ القرنِ الثالثِ الميلادىِّ إلى هُوَّةِ الضعفِ والانهيارِ، وبقدرِ ما تميَّزَ عهدُ ازدهارِهَا باستقرارِ السلطةِ وقوةِ الإدارةِ المتحكمةِ فى شئونِ عدةِ أقاليمَ مختلفةٍ تمتدُّ من سواحلِ المحيطِ الأطلسىِّ غربًا إلى ضفافِ نهرِ الفراتِ شرقًا، بقدرِ ما عانت شعوبُها ومن بينها أممٌ عريقةٌ متحضرةٌ كالمصريين واليونانيين من فسادِ الإدارةِ وتدهورِ الحياةِ الاقتصاديةِ التى كانت قد نالت شيئًا من الانتظامِ والنهضةِ طوالَ القرنين الأولِ والثانى الميلاديين، ومع مرورِ الوقتِ وتتابعِ الأباطرةِ لم تزد

الأوضاعُ في روما إلا اضطرابًا وتدهورًا، حيثُ تحكَّمَتْ جيوشُ الإمبراطوريةِ في شئونِ الحكمِ وتدخَّلَ قادتُها في أمرِ العرشِ، يُنَصِّبُونَ الأباطرةَ تارةً ويعزلونهم أو يقتلونهم تارةً أخرى، لتبدأ منذُ أواسطِ القرنِ الثالثِ الميلاديِّ سلسلةٌ



قصر الإمبراطور هادريان - روما

متصلةٌ من الأباطرةِ العسكريين الذين تأتي بهم المؤامراتُ والانقلاباتُ المتلاحقةُ، وليؤدِّيَ ضعفُ الإمبراطوريةِ وانشغالُ حكَّامِهَا بما أصابها من ضعفٍ وفوضى إلى تشجيعِ بعضِ أقاليمِهَا على الثورةِ ومحاولةِ الاستقلالِ والتخلُّصِ من السيطرةِ الرومانيةِ، وعلى رأسِ هذه الأقاليمِ كانت تَدْمُرُ تلك الإمارةُ التجاريةُ الصغيرةُ التي لم تكتفِ بالاستقلالِ وتهديدِ وحدةِ إمبراطوريةِ روما، بل راحت تحاولُ أن تُكَوِّنَ لنفسِهَا مُلْكًا واسعًا وإمبراطوريةً جديدةً بغزوِهَا لأرضِ مصرَ عامَ ٢٦٩، ولكنَّ تَدْمُرَ ما كادت تهنأُ باستيلائِهَا على درةِ التاجِ الرومانيِّ، حتى خاضَ الإمبراطورُ أوريليانُ حربًا قاسيةً مع جيوشِهَا وتمكَّنَ من هزيمتِهَا والقضاءِ على قُوَّتِهَا مستعيدًا حكمَ بلادِ الفراعنةِ من جديدٍ.

وفي الوقتِ الذي دارَتْ فيه المعاركُ بين أوريليانَ وملكةِ تدمرَ كانت آخرُ زياراتي لبلادِكُمْ، حيثُ علمتُ بنبأٍ

انتصارِ الرومانِ، ورأيتُ كيف استطاعوا أن يستعيدوا سيطرتَهم على جميعِ أقاليمِ إمبراطوريتِهم فى الشرقِ بما فيها مصرُ وتدمرُ، غيرَ أن هذا الانتصارَ على أهميتِه لمْ يكُ كافيًا لمنعِ سقوطِ روما ووقفِ سيرِهَا صوبَ التدهورِ والانهيارِ؛ وذلك ما تأكَّدَ لدىَّ بعد ما تركتُ مصرَ مواصلاً رحلاتى وجولاتى التى لاتنتهى.

ففى الشرقِ رأيتُ كيف قُدِّرَ للفرسِ أن ينهضوا من جديدٍ تحتَ حكمِ الأسرةِ الساسانيةِ التى جلس أفرادُها على عرشِ فارسَ منذُ عامِ ٢١٢، ومنذُ ذلك التاريخِ راح العالمُ يستقبلُ قوةً جديدةً وإمبراطوريةً ناهضةً يزدادُ نشاطُها وتمتدُّ حدودُهَا عامًا من بعدِ عامٍ، بينما يمضى نجمُ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ صوبَ الانحسارِ والأفولِ، وحينما اكتملت القوةُ الفارسيةُ وصارت خطرًا جارفًا يدقُّ وبعنفٍ أبوابَ الشرقِ، كانت روما قد لفظت أنفاسَها الأخيرةَ فلم يَعُدْ باقيًا من اتحادِ أراضيها الشاسعةِ بعدَ سقوطِهَا وانقسامِ أقاليمِهَا الغربيةِ بين الموجاتِ البشريةِ المهاجرةِ إلى جنوبِ وغربىْ أوروبا عامَ ٤٧٦ سوى الأقاليمِ المنتظمةِ فى عقدِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ التى وَرِثَتْ مُلْكَ الرومانِ وأملاكَهُمْ فى الشرقِ، وقبلَ أن يأخذَنى الحديثُ عن كيفيةِ انهيارِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ وقيامِ إمبراطوريةِ بيزنطيةِ؛ فيشغلنى ذلك عن إخبارِكمْ بما كانَ من أمرِ بلادِكُم طوالَ هذه الأعوامِ الطوالِ، دعونى أقصُّ عليكم أحداثَ زيارتى التاليةِ لها وستعلمون دون شكٍّ مما سأقصُّهُ عليكم ما جرى فى جنباتِ العالمِ خلالَ هذه الفترةِ المضطربةِ من حياةِ الإنسانيةِ.

فى منتصفِ عامِ ٤٩٨ وقبلَ أن يستقرَّ عزمى تمامًا على الذهابِ إلى مصرَ، كنتُ فى القسطنطينيةِ عاصمةِ بيزنطةَ أشاهدُ استعراضَ الإمبراطورِ

أناستاسَ لبعضِ فرقِ جيُوشِهِ فى احتفالٍ مهيبٍ بساحةِ الاحتفالاتِ العامةِ التى ازدحمت بالمشاهدينَ من مختلفِ أقاليمِ الإمبراطوريةِ، ووسطَ الجموعِ المزدحمةِ وبجانبِ مسلةٍ فرعونيةٍ شاهقةٍ زُيِّنَتْ بها ساحةُ الاحتفالاتِ، التقَيْتُ بأحدِ التجارِ المصريين، فما كِدْتُ أعلمُ أنه قادمٌ لتوِّه من مصرَ حتى أطلَّتْ من رأسى علاماتُ الاستفهامِ تنبئُ عن شغفى البالغِ إلى معرفةِ ما دار فى بلادِكُمْ خلالَ أكثرَ من مائتى عامٍ مضت على آخرِ زياراتى لها، ذلك الشغفُ الذى جعلنى أمسكُ بيدِ هذا المصرىِّ مبتعداً عن ضجيجِ الاحتفالِ، لأتوجَّهَ إليه متسائلاً: تُرَى هل جئتَ إلى القسطنطينيةِ لمارسةِ أعمالِ التجارةِ؟

فقال: أَجَلْ، لقد جئتُ إلى هنا بصحبةِ مجموعةٍ من تجارِ الإسكندريةِ لنعرضَ بعضَ مصنوعاتِ بلادِنَا فى أسواقِ عاصمةِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ.

فقلتُ له: أعلمُ أن الصناعةَ فى بلادِكُمْ قد خرجَتْ مع بدايةِ عهدِهَا الرومانىِّ من العثراتِ المتعاقبةِ التى لَحِقَتْ بها فى عهودِ ضعفِ وانهيارِ الدولةِ البطلميةِ، أعلمُ كذلك أن كثيراً من الازدهارِ الذى اكتسبته وقتَ

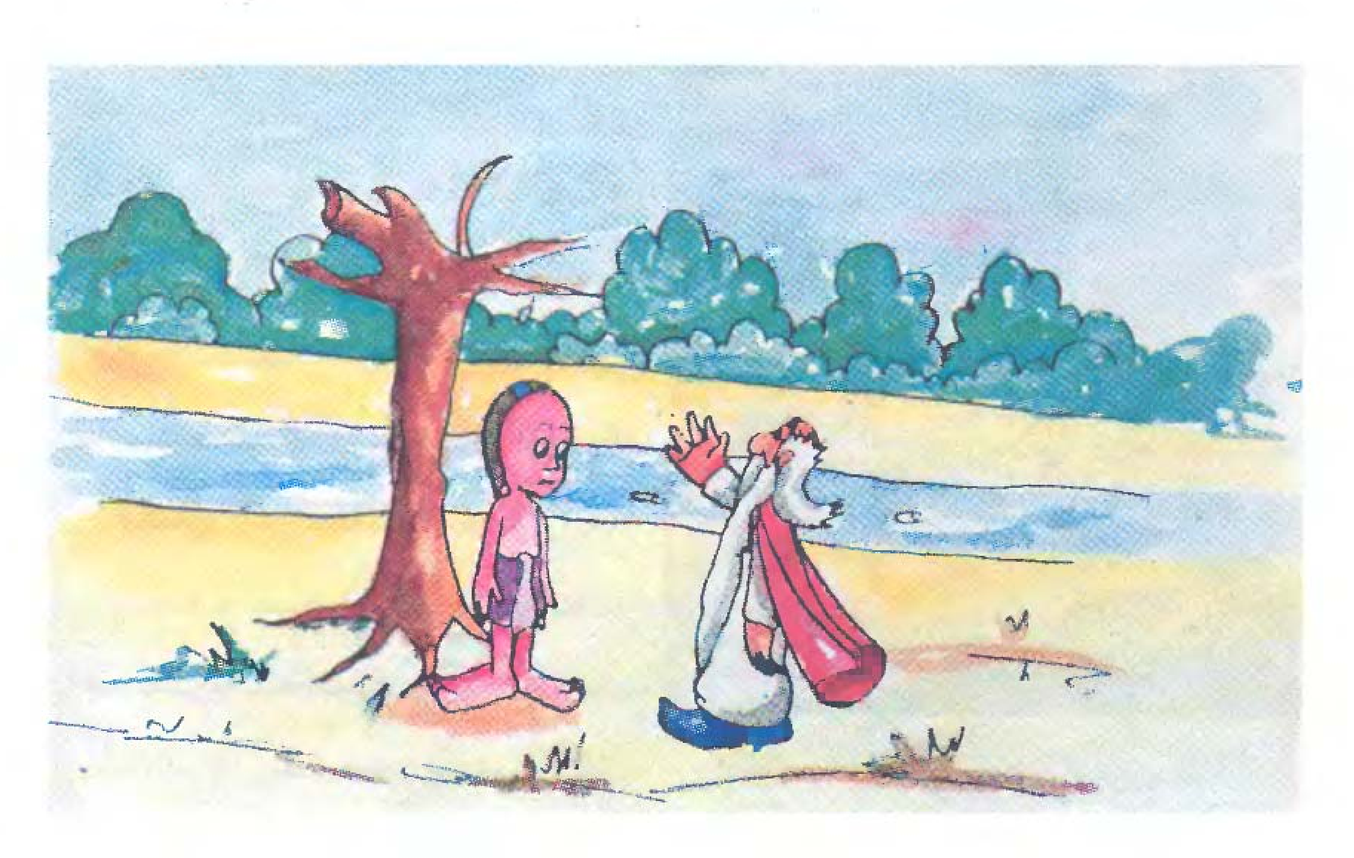


خرائب تدمر

استقرارِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ وقوّتِهَا عـادت تفـقـدُه فى أوقـاتِ اضطرابِهَا وضعفِهَا، فما الذى حدث لها فى ظلِّ حكمِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ؟

فـقـال: لقـد انتـقلَتْ بلادُنَا من الخضـوعِ لحكمِ أباطرةِ رومـا إلى الوقـوعِ تحتَ سـيطرةِ أباطرةِ القسطنينيةِ، فلم يؤثِّرْ ذلك الانتقالُ على استمرارِ تدهورِ صورِ الحيـاةِ فى أرجائِهَا، يحملُ لهـا كلُّ يومٍ جـديدٍ المزيدَ من التدهورِ لحياتِهَا الزراعيةِ والتجاريةِ والصناعيةِ التى على الرغمِ من سوءِ أوضـاعِهَا فى ظلِّ الحكمِ البيزنطىِّ لم تصلْ بعدُ إلى حدِّ الانهيارِ الكاملِ، فكما ترى ها نحن نخرجُ إلى اليومِ بتجارتِنَا إلى مختلفِ أسواقِ العالمِ لنعرضَ بها ما تصوغُه أيدى الصناعِ المصريين من منتجاتٍ متنوعةٍ.

فـقلتُ له: وهل ظلَّتِ الإسكندريةُ تتمتَّعُ بشهرتِهَا القديمةِ كواحدةٍ من أرقى المراكزِ الصناعيةِ فى العالمِ تحتَ





فسيفساء بيزنطيه

تمتعت الإسكندريةُ طوالَ عهودِهَا الماضيةِ بشهرةٍ فاقت الكثيرَ من عواصمِ العالمِ ومراكزِ حضارَتِه، وامتـازَتْ منتجـاتُهَا الصناعيةُ بحسنِ الصنعةِ وروعةِ المظهرِ، ولكن ما من شكٍّ فى أن مكانةَ الإسكندريةِ قد تأثَّرَتْ بما أصابَ صورَ الحياةِ فى البلادِ من تدهورٍ منذُ مطلعِ القرنِ الثالثِ الميلادى وكذلك تأثرت صناعاتُها بذلك التدهورِ تأثرًا عظيمًا.

فقلتُ له: وكيف كان ذلك التأثرُ؟

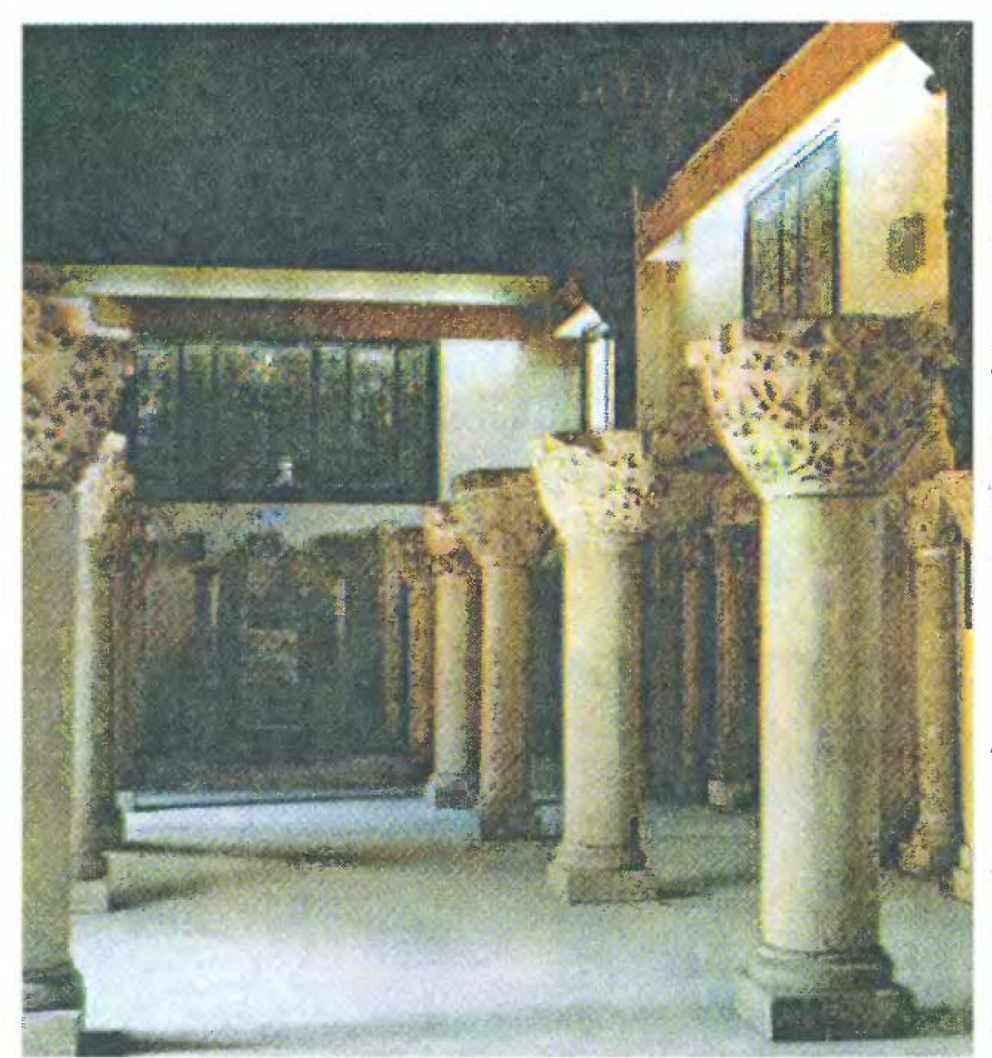
فقال: بسببِ سوءِ أحوالِ البلادِ تحتَ الحكمِ البيزنطىِّ من ناحيةٍ وتصاعدِ قوةِ المنافسةِ الخارجيةِ من ناحيةٍ أخرى، تراجعَتْ جودةُ وأهميةُ ما تصنعُه الإسكندريةُ من آنيةٍ زجاجيةٍ كانت لها بالأمسِ المرتبةُ الأولى بين ما ينتجُه العالمُ أجمعُ، حكمِ أباطرةِ بيزنطةَ؟

فقال: منذُ أن وضع الإسكندرُ المقدونىُّ أساسَ مدينتِه المصريةِ على ساحلِ البحرِ المتوسطِ، راحت الإسكندريةُ هذه المدينةُ المتألقةُ الشابةُ تؤدى دورًا أساسيًّا ومهمًّا فى حياةِ مصرَ كعاصمةٍ لها طوالَ العصرين البطلمىِّ والرومانىِّ والبيزنطىِّ من بعدِهِمَا وكأكبرِ مركزٍ حضارىٍّ وصناعىٍّ وتجارىٍّ على أرضِهَا، وقد

وكذلك أدَّى انتشارُ استخدام رقائقِ الجلدِ فى الكتابةِ إلى عدمِ العنايةِ بإنتاجِ الأنواعِ الراقيةِ من أوراقِ البَرْدِى، وكما تراجعَتْ صناعةُ الزجاجِ وورقِ البَرْدِى فقدَتْ صناعةُ النسيجِ الكثيرَ من أهميتِهَا ورقيِّهَا، ومع هذا لم يوقفْ ما تعانيه مصرُ من ضيقٍ اقتصادىٍّ الإدارةَ البيزنطيةَ عن استغلالِ محاجرِ البلادِ ومناجمِهَا، بل لقد نَشِطَتْ هذه الإدارةُ فى استغلالِ المحاجرِ المنتشرةِ على سواحلِ البحرِ الأحمرِ يجلبون منها الأحجارَ الجيريةَ الملساءَ ليشيِّدُوا بها أبنيةَ الحكمِ والمنشآتِ العامةِ، وكذلك توسعت فى استغلالِ مناجمِ شبهِ جزيرةِ سيناءَ والصحراءِ الشرقيةِ وجنوبِ الوادى، كما استخرجت الزمرُّدَ من أسوانَ والعقيقَ من أرمَنْتَ وغيرَهما من الأحجارِ الكريمةِ التى تزخرُ بها أرضُ الوادى والدلتا ليقومَ صناعُ الإسكندريةِ بصياغَتِهَا وتصديرِهَا إلي الأسواقِ العالميةِ.

فقلتُ له: هذا عن الصناعةِ، فماذا عن تجارةِ بلادِ الفراعنةِ فى العصرَيْنِ الرومانىِّ والبيزنطىِّ؟

فقالَ: قامَتْ فى بلادِنَا مع بدايةِ عهدِهَا الرومانىِّ نهضةٌ تجاريةٌ عظيمةٌ، فقد ضمَّتْ روما إلى إمبراطوريَّتِهَا عددًا كبيرًا من بلدانِ العالمِ وأوطانِه فِى وحدةٍ سياسيةٍ مترابطةٍ يسَّرَتْ بين أرجائِهَا الانتقالَ والتواصلَ؛ فكان من الطبيعىِّ أن تتميَّزَ مصرُ بين أقاليمِ هذه الإمبراطوريةِ بموقعِهَا الفريدِ الذى يتوسَّطُ طرقَ التجارةِ بين الشرقِ والغربِ، وشبكةِ مواصلاتِهَا التى يربطُ النهرُ بين أطرافِهَا، وكذلك ما اتبعَتْهُ الإدارةُ الرومانيةُ من عدمِ تقييدِ نشاطِهَا التجارىِّ مكتفيةً بمراقبةِ تجارتِهَا وتحصيلِ مايقدَّرُ عليهم من ضرائبَ، كلُّ ذلك جعلَ من بلادِنَا فى عهدِهَا الرومانىِّ مركزًا من أهمِّ مراكزِ التجارةِ فى العالمِ بأسرِهِ، فلم تقتصرْ



تجارتُهَا فى هذه الفترةِ على مايَرِدُ إليـهـا من مـوادٍّ أوليةٍ من مختلف بقاعِ الدنيا تقومُ بتصنيعِهَا قبلَ أن تعودَ فتصدِّرُهَا من جديدٍ، وكما كانت مصرُ منذ فجرِ حضارَتِهَا وطوالَ عهودِهَا الماضيةِ متميزةً بِعِظَمِ ما تصدِّرُهُ من فائضِ إنتاجِهَا إذ ما قورِنَ بما تحتاجُ إلى استيرادِهِ من خارجِ حدودِهَا، ظلَّتْ تتمتَّعُ بتلك الميزةِ طوالَ عهدِهَا الرومانىِّ.

فقلتُ له: وما دام الأمرُ كذلك، لماذا لم يرتقِ مستوى معيشةِ المصريين فى المدنِ والقرى على طوالِ الوادى والدلتا إلى نفسِ الدرجةِ التى ارتقَتْ إليـهـا تجارتُهم فى العصرِ الرومانى؟

فقال: لم يحدثْ ذلكَ لأن ما كانت ترسلُه بلادُنا إلى روما من جزيةٍ كان يلتهمُ جزءًا كبيرًا من أساسِ تجارتِهَا الخارجيةِ، علاوةً على أن ما كانت تفرضُه الإدارةُ الرومانيةُ على تجارتِهَا من ضرائبَ كان يقتصُّ جانبًا من عائدِ النشاطِ التجارىِّ الذى يذهبُ

الفـائضُ منه إلى أيدى التـجـارِ الرومـانيين الذين اسـتـأثروا بمعظمِ أعمالِ التجارةِ فى الإسكندريةِ.

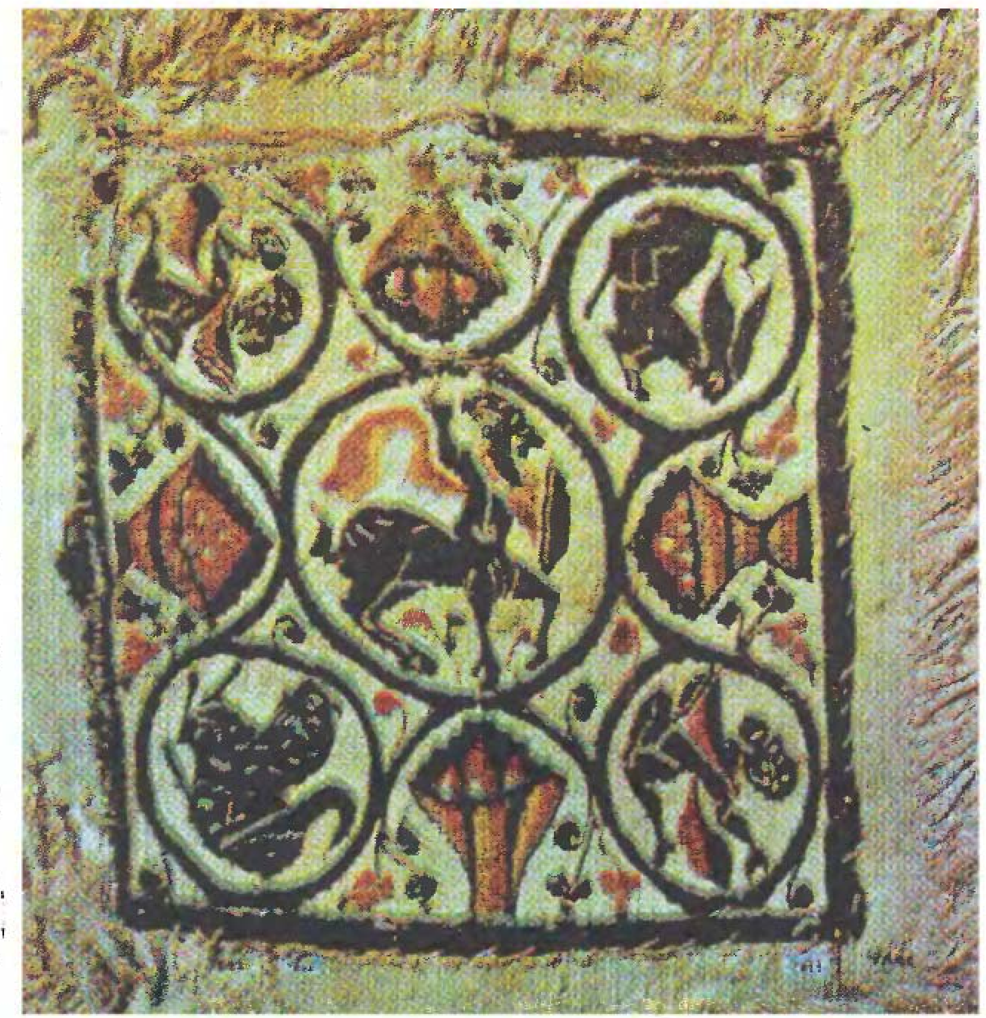
فـقلتُ له: حـسنًا، وهل اسـتـمـرت التجارةُ المصريةُ محتفظةً بذلك النشاطِ الكبيرِ تحتَ حكمِ أباطرةِ بيزنطةَ؟

فقال: إن الثرواتِ والامتيازاتِ التى حـقَّقَهَا تجارُ الإسكندريةِ فى فـتراتِ نشاطِ تجارتِهِمْ ونهضَتِهَا، كانت غايةً فى الضـخـامـةِ حـتى أنهم احـتكروا التـجارةَ الشـرقيـةَ لأنفسهِمْ، كـمـا أنَّ أسطولَهُمُ التجارىَّ فى البحرِ المتوسطِ كان الأولَ بين أساطيلِ جميعِ ولاياتِ الإمبـراطوريةِ الرومـانيةِ، وقد جـعلهم ذلك يتمسكونَ بما حـققـوه من مكانةٍ بكلِّ مـا امـتلكوا من قوةٍ ونفوذٍ وثراءٍ، مما سـاعدهم على الاحـتـفـاظِ ببـعضِ امـتـيـازاتِهِمْ ونشـاطِهِمْ تحتَ حكمِ أباطرةِ بيزنطةَ، حيثُ استمرَّ اتصالُنا بالشـرقِ وبلادِ العـربِ دونَ انقطاعٍ، واسـتـمـرَّ عـملُ خطوطِ تجـارتِنَا فى البحرِ المتوسطِ وإن كان خطُّ تجارتِنَا الرئيسىُّ فى هذا البحرِ قد تحـوَّلَ من روما إلى القسطنطينيةِ، ومـازالت أهمُّ صادراتِنَا هى القمحُ والكتانُ والبردى والمنسـوجـاتُ والزجـاجُ، إلى جـانبِ العطورِ والتـوابلِ والعـاجِ، أمـا أهمُّ وارداتِنَا فـلا تزالُ هى الفضـةُ والحريرُ والأخشابُ.

وعلى الرغمِ من وفـرةِ مـا يعلمُه ذلك التاجرُ المصرىُّ عمـا وصلَ إليه حالُ الصناعةِ والتـجـارةِ فى بلادِكُمْ، لم يَكُ لديه الكثيرُ الذى يقصُّهُ علىَّ عما جرى فيها من أحداثٍ منذُ آخرِ زياراتى لها وحـتى يومِ لقـائى به، لذلك لم أجـدْ أمـامى مـفـراً من التـعـجـيلِ بزيارتى التـاليـةِ لهـا، حـيثُ وصلتُ إلى الإسكندريةِ قبلَ نهايةِ نفسِ العامِ، ومن الإسكندريةِ بدأتُ رحلةً طويلةً شـاقـةً فى البحثِ عن نيلٍ.

ثلاثةُ أشهرٍ كاملةٍ مضت وأنا أنتقلُ بين شمـالِ مصـرَ وجنوبِهَا دونَ فائدةٍ

قبلَ أن أعلمَ بالصدفةِ عن وجودِهِ في إحدى قرى الدلتا، وحينما ذهبتُ إلى هذه القريةِ وجدتُه جالساً في إحدى دُورِهَا ومِنْ حَوْلِهِ عددٌ كبيرٌ مِنَ الزرَّاعِ يحدِّثُهُمْ بانفعالٍ وحماسٍ شديدَيْنِ عن أمجادِ أجدادِهِمْ وعراقةِ تاريخِهِمْ محفِّزًا إياهم على عدمِ التفريطِ في أرضِهِمْ أو التنازلِ عن ملكيَّتِهَا، بينما راح جميعُ مَنْ حَوْلَهُ ينصتونَ له بمزيدٍ من الاهتمامِ والإعجابِ، وبالطبعِ لم أستطعْ فهمَ شيءٍ ممَّا يدورُ، وكذلك لم أستطِعْ أن أقطعَ على نيلٍ انشغالَه البالغَ بالحديثِ إلى هؤلاءِ الزراعِ المصريين، فجلستُ قريبًا منهم دونَ أن أنطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، حتى إذا ما انتهى نيلُ من حديثِه وتفرَّقَ كلُّ الزرَّاعِ إلى دُورِهِمْ بعدما اتفقَ الجميعُ على التمسُّكِ بما يمتلكوه من أراضٍ وَرِثُوهَا عن آبائِهِمْ وأجدادِهِمْ جيلاً من بعدِ جيلٍ،



قطعه من النسيج المصرى – القرن الخامس

اقترب منى قائلاً: مرحبًا بك ياأبَتِى، لابدَّ وأنك تريدُ أن تعرفَ سببَ ما دار أمامَك الآنَ؟

فقلتُ له: بالطبعِ، ولكننى أودُّ أن أعلمَ أوَّلاً كلَّ ما جرى فى بلادِكمْ منذُ أن استردَّ الإمبراطورُ الرومانىُّ أوريليانُ حكمَها من أيدى ملكةِ تَدْمُرَ وجيشِهَا عامَ ١٧١ وحتى اليومِ.

فقال: لقد استردَّ أوريليانُ حكمَ بلادِنَا وانتصرَ على جيوشِ تدمرَ وأسَرَ مَلِكَتَهَا، لكنه لم يستطعْ مع كلِّ ذلك أن يضمنَ أمنَ وسلامةَ أقاليمِ إمبراطوريَّتِهِ فى الشرقِ ضمانًا تامًّا، إذ سرعانَ ما اشتعلَتِ الثورةُ فى تدمرَ ومصرَ عامَ ٢٧٢ حيثُ قاد ثورةَ المصريين فيرموسُ أحدُ كبارِ تجارِ الإسكندريةِ بعدما تمكَّنَ من أن يكوِّنَ لنفسِهِ جيشًا خاصًّا معتمدًا على ما يمتلكُه من أموالٍ طائلةٍ كان قد جمعها من تجارةِ البَرْدِى، وأمامَ خطرِ هاتين الثورتين اضطرَّ أوريليانُ إلى التوجُّهِ إلى تدمرَ والقضاءِ على ثورَتِهَا، ثم تحوَّلَ إلى الإسكندريةِ محاصرًا فيرموسَ وجنودَه فى الحىِّ الرئيسىِّ وضيَّقَ عليهم الخناقَ، حتى اضطروا إلى التسليمِ ولكن بعد أن دمَّرَ الحىَّ تمامًا بكل ما يحويه من أبنيةٍ ومنشآتٍ.

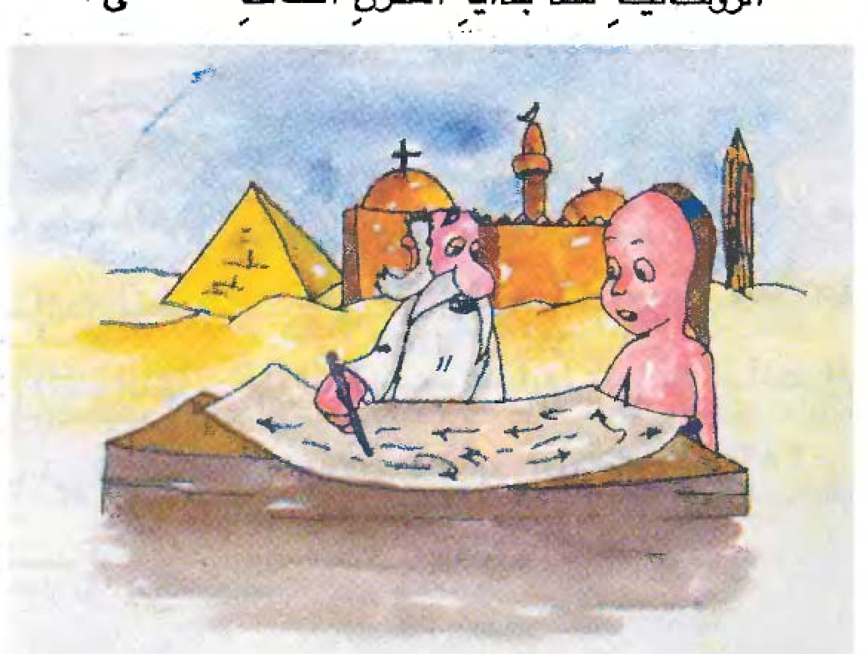
فقلتُ له: وهل استقرَّ لروما حكمُ أقاليمِ إمبراطوريتِهَا فى الشرقِ بعدَ ذلك؟

فقال: بعد قضائِهِ على ثورةِ فيرموسَ غادرَ أوريليانُ مصرَ تاركًا بروبوسَ أحدَ كبارِ قادة جيوشه بها للقضاءِ على الاضطراباتِ التى كانت قد اشتعلَتْ فى جنوبِ الوادى، وفى عامِ ٢٧٥، وبينما كان بروبوسُ يعملُ على قمعِ الاضطراباتِ فى الجنوبِ توفى الإمبراطورُ أوريليانُ فانتهزَ الجيشُ الرومانىُّ فى الإسكندريةِ فرصةَ وفاتِهِ، ونادَوْا بالقائدِ بروبوسَ إمبراطورًا للبلاد، وقد تمكَّنَ بروبوسُ

من أن يفرضَ نفسَه حاكمًا لجميعِ أقاليمِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ طوالَ خمسةِ أعوامٍ قضاها في خوضِ الحروبِ لتأمينِ حدودِ الإمبراطورية ، فلم تُصبْ مصرُ في عهدِه تجسنًا يذكرُ وظلَّتْ تعاني من تدهورِ أوضاعِهَا المستمرِّ.

فقلتُ له : لقد قُتِلَ الإمبراطورُ بروبوسُ بيدِ جنودِ الإمبراطوريةِ الذين قتلوا من بعدِه ثلاثةَ أباطرةٍ آخرينَ في أقلَّ من عامَيْنِ، لتسودَ الفوضى وتتتابعَ الانقساماتُ والحروبُ الداخليةُ التي كانت سمةً مميزةً للإمبراطوريةِ الرومانيةِ منذُ بدايةِ القرنِ الثالثِ الميلادىِّ، حتى إذا ما جاء عامُ ٢٨٤ وتولى الإمبراطورُ دقلديانوسُ الحكمَ بدأت تلك الإمبراطوريةُ التي عبثت بها الاضطراباتُ فخلَّفَتْهَا في أقصى درجاتِ الضعفِ والتدهورِ دونَ سلطةٍ مركزيةٍ يُحْسَبُ لها حسابُ عهدًا جديدًا .

فقال: كان دقلديانوسُ واحدًا من هؤلاءِ الأباطرةِ العسكريين الذين أَتَتْ بهم المؤامراتُ والحروبُ والدسائسُ، لكنه اختلفَ دونَ شكٍّ عن كلِّ سبقه من أباطرةٍ بما تمتَّعَ به من مواهبَ فَذَّةٍ في الحكمِ والإدارةِ، هذه المواهبُ التي أتاحَتْ له القدرةَ على وقفِ تدهورِ الإمبراطوريةِ وانتشالِهَا من هُوَّةِ الاضطراباتِ والفوضى بما سَنَّهُ لها من قوانينَ وما ابتكرهُ من نظمٍ ظلت أساسَ الإدارةِ والحكمِ في الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ



حتى اليوم.

فقلتُ له: أجَلْ يانيلُ، فقد كان عهدُ دقلديانوسَ نقطةَ التحولِ من عصرِ انهيارِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ إلى عصرِ قيامِ إمبراطوريةٍ بيزنطةَ التى صانَتْ كيَانَ هذا المُلْكِ الضخمِ من الأفولِ والاندثارِ، لقد نظرَ دقلديانوسُ فرأى اتساعَ رقعةِ إمبراطوريَّتِهِ وتعدُّدَ مشاكلِهَا الداخليةِ والخارجيةِ إلى الحدِّ الذى يستحيلُ معه الإبقاءُ على وَحْدتِهَا تحتَ حكمِ إمبراطورٍ واحدٍ، فقام بتقسيمِهَا بين اثنين من الأباطرةِ هو فى نصفِهَا الشرقىِّ والإمبراطورُ ماكسيميانُ فى الغربِ، على أن يتنازلا معًا عن العرشِ لنائبَيْهِمَا فى الحكمِ متى مرَّ على ولايَتِهِمَا عشرون عامًا، وتعدَّدَتْ بعدَ ذلك قوانينُه وإصلاحتُه التى كان أهمُّهَا إصلاحَه لنظامِ الضرائبِ، حيثُ عَمِلَ على إلغاءِ النظامِ القديمِ الذى كان يختلفُ فى قواعده من إقليمٍ إلى آخَرَ وابتدعَ نظامًا ضرائبيًّا جديدًا يقضى بفرضِ ضريبةٍ متساويةٍ على الأفرادِ والأراضى فى جميعِ أرجاءِ الإمبراطوريةِ مع مراعاةِ اختلافِ درجةِ خصوبةِ هذه الأراضى وتنوُّعِ محاصيلِهَا، وقد ساعدته دقةُ الإحصاءاتِ التى قام بإنجازِهَا على تنفيذِ نظامِهِ الجديدِ فى مهارةٍ ويسرٍ.

فقال: ولاتَنْسَ أيضًا أنه لم يكتفِ بتقسيمِ الإمبراطوريةِ إلى قسمَيْنِ أحدِهِمَا فى الغربِ والآخَرِ فى الشرقِ، بل قام بتقسيمِ أراضى الإمبراطوريةِ إلى اثنَىْ عشرَ إقليمًا كبيرًا ثم قامَ بتقسيمِ كلِّ إقليمٍ على حِدَةٍ إلى مجموعةِ ولاياتٍ صغيرةٍ، حتى أن مصرَ صارت بذلك التقسيمِ ثلاثَ ولاياتٍ منفصلةٍ وإن كان لحاكمِ الولايةِ الأولى فى الإسكندريةِ سلطانٌ اسمىٌّ على الولايتين الأخريين، وظلَّ هذا التقسيمُ سائدًا إلى أن عادت إلى بلادِنَا وحدتُهَا السياسيةُ عام ٣٨٢.



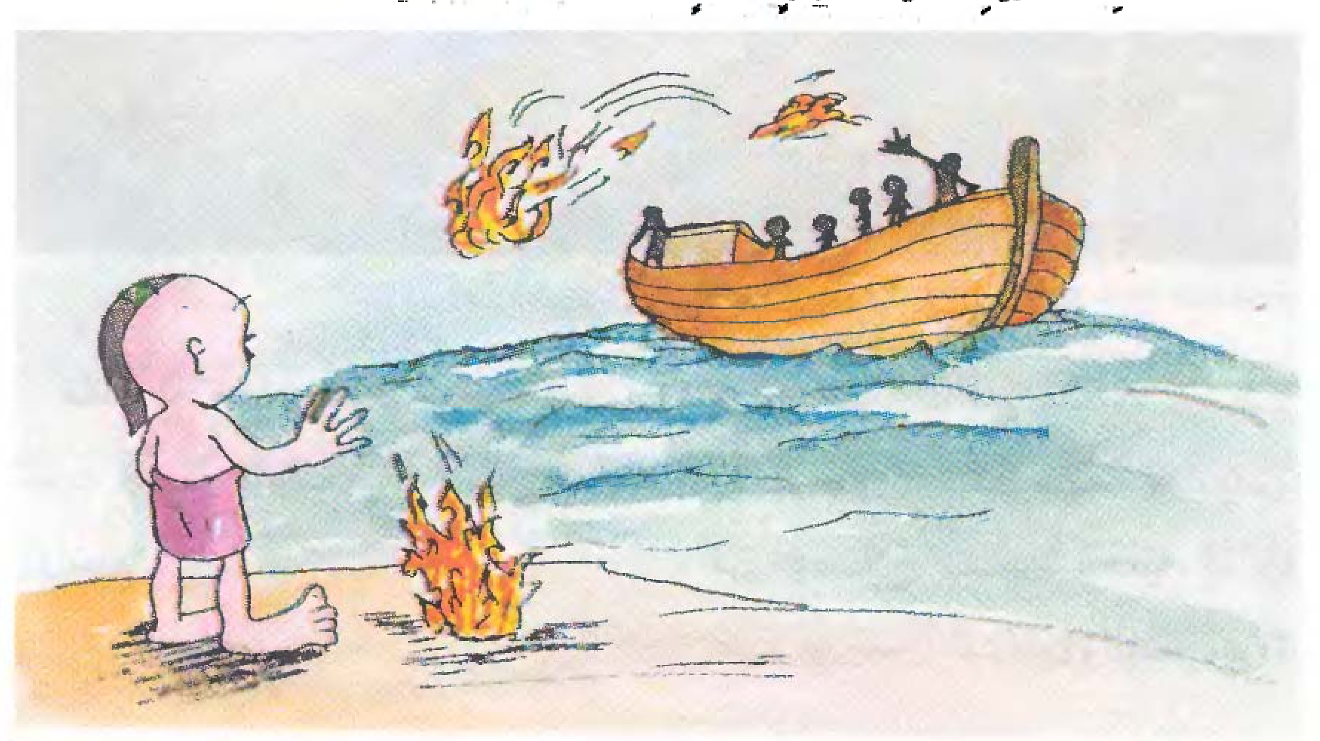
شاهد أحد القبور المصريه – القرن الخامس

فقلتُ له: وعدا ذلك التقسيمِ، كيف تأثرت مصرُ بإصلاحاتِ دقلديانوسَ وقوانينِهِ؟

فقال : مع سوءِ أوضاعِ الإمبراطوريةِ كانت مهمةُ دقلديانوسَ فى الإصلاحِ عسيرةً للغايةِ، إذ كان عليه أن يسنَّ القوانينَ والنظمَ ويراقبَ

تنفيذَهَا فى نفسِ الوقتِ الذى يحافظُ فيه على أمنِ حدودِ إمبراطوريَّتِه الشاسعةِ من كلِّ خطرٍ خارجىٍّ ويضمنُ سلامَتَهَا من الثوراتِ والانقلاباتِ فى الداخلِ، وقد واجه الاضطراباتِ على حدودِهَا الجنوبيةِ واستطاعَ تأمينَهَا بعدَ جَهْدٍ شاقٍّ، ثم راح يتفرَّغُ للوقوفِ فى وَجْهِ قائدِ جيوشِهِ أخيليوسَ الذى تزعَّمَ تمرُّدًا للجندِ فى الإسكندريةِ معلنًا من نفسه إمبراطورًا للبلادِ وتمكَّنَ دقلديانوسُ من محاصرةِ المتمردينَ داخلَ العاصمةِ المصريةِ ثمانيةَ أشهرٍ كاملةٍ قبلَ أن ينجحَ فى التغلُّبِ عليهم والقضاءِ على تمرُّدِهِمْ مخلِّفًا الإسكندريةَ تعانى من تدميرِ أجزاءٍ كبيرةٍ من أبنيتِهَا، تدهورِ معيشةِ عددٍ كبيرٍ من سكَّانِهَا، حتى أنه أمرَ بمنحِهَا جزءًا من قمحِ الجزيةِ المرسلِ إلى روما، وقد أظهر الإسكندريون شكرَهم على هذه المنحةِ بأن أقاموا له نُصُبًا حجريًا ضخمًا على شاطىءِ مدينَتِهِمْ.

فقلتُ له : وماذا عن أوضاعِ المسيحيين المصريين فى عهدِ دقلديانوس يانيلُ؟



فقال : كانت حدةُ اضطهادِ المسيحيةِ والمسيحيين في مصرَ قد خَفَّتْ تمامًا منذُ وفاةِ الإمبراطورِ ديكيوس، فلما جاء دقلديانوسُ رأى أنه لكي يضمنَ وحدةَ إمبراطوريَّتِه وسلامَتَهَا في الداخلِ لابد وأن يقضيَ على كلِّ الخلافاتِ والانقساماتِ فيها، لذلك قرَّرَ القضاءَ على المسيحيةِ وأتباعِهَا، لكنه لم يسارعْ إلى مواجهاتِهِمْ بالقوةِ في أولِ الأمرِ، بل ظلَّ فترةً طويلةً من حكْمِهِ يحاولُ أن يوقفَ انتشارَ المسيحيةِ بدونِ اللجوءِ إلى القسوةِ والعنفِ، حتى إذا ما تأكَّدَ من عدمِ جدوى محاولَتِه راح يُنْزِلُ على أتباعِهَا صنوفَ الاضطهادِ طولَ العامين الأخيرين من ولايَتِه، وبعدَ اعتزالِهِ الحكمَ استمرَّ الاضطهادُ على أشُدِّه ثمانيةَ أعوامٍ أخرى، وقد تعرَّضَ أتباعُ المسيحيةِ المصريين في هذه الأعوامِ العشرةِ إلى اضطهادٍ فاق كلَّ ما كانوا قد تعرَّضُوا له في عهدِ الإمبراطورِ ديكيوس.

فقلتُ له : لقد أمضى دقلديانوسُ أعوامَ حُكْمِهِ في حروبٍ مستمرةٍ وصراعاتٍ لاتنتهي، حتى إذا ما جاءَ عامُ ٣٠٥ كان قد بلغَ الستينَ من عمرِهِ وتغلَّبَتْ عليه الأمراضُ، كما أن مُدَّةَ حكْمِهِ ومعه إمبراطورُ الغربِ مكسيميانُ كانت قد أشرفَتْ على الانتهاءِ فتنازلا عن العرشِ لنائبَيْهِمَا في الحكمِ أملاً في أن يواصلا العملَ على إصلاحِ شئونِ الإمبراطوريةِ للنهوضِ بِها من عَثَرَاتِهَا المتلاحقة، ولكن ما إن اعتزل دقلديانوسُ الحكمَ حتى فقدت الإمبراطوريةُ اليدَ الحازمةَ القويةَ وعادت تعاني من اندلاعِ النزاعاتِ



قسطنطين الأول

الداخليةِ وتفشِّى الصراعِ حولَ السيادةِ والسلطةِ بين شقِّى الإمبراطوريةِ فى الشرقِ والغربِ، ولم ينتهِ ذلك الصراعُ إلا بانفرادِ إمبراطورِ الشرقِ قسطنطينَ الأولِ بحكمِ الإمبراطوريةِ بأسرِهَا عامَ ٣٢٤.

فقال : وأنت تعلمُ بالطبعِ ما كان من أمرِ قسطنطينَ الأولِ ومحاولةِ استكمالِهِ لإصلاحاتِ دقلديانوس.

فقلتُ له : أجَلْ، فقد برزت شخصيةُ قسطنطينَ الأولِ منذُ أن تولَّى حكمَ الجانبِ الشرقىِّ من الإمبراطوريةِ عامَ ٣٠٦ واستطاعَ بما امتلكَ من مهارةٍ عسكريةٍ وإداريةٍ أن يحسمَ الصراعَ الذى دارَ بعد اعتزالِ دقلديانوسَ الحكمَ لصالحِهِ؛ ليسيطرَ ابتداءً من العامِ الثامنَ عشرَ لولايتِهِ على مقاديرِ الإمبراطوريةِ بأسْرِهَا بعد ما رأى أن إصلاحَهَا ووقْفَ انطلاقِهَا صوبَ الانهيارِ الكاملِ لن يتحقَّقَ بتقسيمِهَا وتوزيعِ السلطةِ العليا فيها بين إمبراطورَيْنِ واحدٍ فى الغربِ والثانى فى الشرقِ، كما أن الإصلاحَ لن يُؤْتِىَ ثمارَهُ إلا فى ظلِّ حكومةٍ مركزيةٍ قويةٍ قادرةٍ على تأكيدِ سلطانِهَا فى كافَّةِ أرجاءِ الإمبراطوريةِ.

فقال : ولكنَّ قسطنطينَ الأولَ لم يُبْقِ على سيادةِ روما ومكانَتِهَا، بل قام بنقلِ عاصمةِ مُلْكِهِ إلى مدينَتِهِ الجديدةِ فى الشرقِ.

فقلتُ له : لكى يمنعَ انهيارَ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ كان على قسطنطينَ الأولِ أن يبتعدَ بحكومَتِهِ الجديدةِ قَدْرَ الإمكانِ عن روما وأقاليمِ الغربِ التى أنهكَتْهَا المتاعبُ وأحدَقَتْ بها الأخطارُ من جانبٍ وأن يقتربَ منَ الشرقِ بما يتميَّزُ به من ثراءٍ اقتصادىٍّ واضحٍ من جانبٍ آخَرَ، لذلك راح يتَّخذُ قرارَهُ بنقلِ مركزِ الإمبراطوريةِ من الغربِ إلى الشرقِ وتشييدِ عاصمةٍ جديدةٍ لملكِهِ عِنْدَ نقطةِ التقاءِ قارتى آسيا وأوروبا، وبعد أن

اختارَ لعاصمتِهِ موقعًا حصينًا كانت توجدُ بهِ مدينةٌ صغيرةٌ تسمى بيزنطةَ، أسرع يجمعُ لها كلَّ ماتحتاجُ إليهِ من مهندسينَ وعمَّالٍ وموادِّ بناءٍ من شتى بقاعِ إمبراطوريته، وانتزعَ لتجميلِ ميادينِهَا وأبْنِيَتِهَا أجملَ الآثارِ وأندرَ النفائسِ من بلدانِ الشرقِ والغربِ، وفى عامِ ٣٣٠ افتتح قسطنطينُ الأولُ العاصمةَ الجديدةَ التى أطلق عليها اسْمَهُ، واستمرَّ يعملُ على النهوضِ بشئونِ الإمبراطوريةِ مركزًا جهوده على جانبِهَا الشرقىِّ الذى قُدِّرَ له بفضلِ أعمالِهِ وإصلاحاتِهِ البقاءُ فى الوقتِ الذى سقطَ فيه جانبُهَا الغربىُّ وتحوَّلَ إلى مجموعةِ أقاليمَ منفصلةٍ.

فقال : لقد منع قسطنطينُ الأولُ إمبراطوريةَ الرومانِ من

لوحه من الغسيفساء الملون بإحدى كنائس بيزنطه

الانهيارِ الكامل، وساهم إسهاماً عظيماً في إقامةِ حكومةِ القسطنطينيةِ التي ورثت مُلْكَ روما، وظلَّتْ إلى اليومِ تسيطرُ على أقاليمِهَا الشرقيةِ ولكنه مع ذلك لم ينجحْ في وقفِ تدهورِ صورِ الحياةِ في هذه الأقاليمِ التي لاتزالُ تعاني وعلى رَأْسِهَا مصرُ المسيحيةُ .

فقال : لقد اعترف قسطنطينُ الأولُ بالمسيحيةِ فضَمِنَ لها ولأتباعِهَا الوجودَ والعملَ الآمنَ داخلَ حدودِ إمبراطوريتِهِ، وقد اتَّبَعَ أفرادُ أسرتِهِ الذين خلفوه في الجلوسِ على العرشِ عامَ ٣٣٧ وكان منهم الأباطرةُ قسطنطينُ الثاني وجوفيانُ وفالنذُ سياسةَ التسامحِ مع المسيحيةِ، بل أن أكثرَهم ناصرَ هذه العقيدةَ الجديدةَ وساعد على انتشارِهَا في جميعِ أقاليمِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ، وفي عامِ ٣٧٩ انتهى حكمُ أسرةِ قسطنطينَ الأولِ وجلس الإمبراطورُ ثيودوسيوسُ الأولُ على العرشِ، فشغل الإمبراطوريةَ بالقضاءِ على العقائدِ القديمةِ في كافَّةِ أرجائِهَا، وقد نُفِّذَتْ سياستُهُ في مصرَ بكلِّ قسوةٍ وصرامةٍ، حيث تولَّى رجالُ الإدارةِ البيزنطيةِ في الإسكندريةِ التي صارت أكبرَ ثاني مركزٍ للمسيحيةِ بعد القسطنطينيةِ الوقوفَ في وَجْهِ أتباعِ هذه العقائدِ، حتى أنهم قاموا بمهاجمةِ معبدِ السرابيومِ في الإسكندريةِ وقاموا بتدميرِهِ كما دمَّرُوا المكتبةَ الكبيرةَ الملحقةَ به.

فقلتُ له : وهل استمرَّ ذلك الاضطهادُ طويلاً؟

فقال : استمرَّ الاضطهادُ الذي تحوَّلَ عن المسيحيةِ وأتباعِهَا إلى المصريينَ الذين ظلُّوا على عقائدِهِمُ القديمةِ يقدِّسُونَ سرابيسَ أو آمونَ ورَعْ وإيزيسَ وأوزوريسَ وحورسَ بعد وفاةِ ثيودوسيوسَ الأولِ طوالَ عهدِ خليفَتِهِ الإمبراطورِ أوكاديوسَ الذي وصلَ بِهِ الأمرُ إلى حدٍّ إصدارِ قرارٍ بتحطيمِ جميعِ المعابدِ في البلادِ، ولكنَّ ذلك الاضطهادَ على أهميَّتِهِ لم يَكُ هو



لوحه خشبيه - الكنيسه المعلقه

ذلك الاضطهادَ على أهميَّتِه لم يَكُ هو معاناتَنَا الوحيدةَ خلالَ حكمِ أسرةِ ثيودوسيوسَ الأولِ التى كان من أباطرَتِهَا أركاديوسُ وثيودوسيوسُ الثانى وماركيان وأناستاسُ الذى نعيشُ الآنَ فى عامِ حكمِه السابعِ.

فقلتُ له : ماذا تقصدُ يا نيلُ؟

فقال : إن الفتنَ والاضطراباتِ وضعفَ الحكومةِ المركزيةِ فى القسطنطينيةِ ضاعف على جموعِ المصريين ما كانوا يعانونَ منه تحتَ حكمِ أباطرةِ روما من تدهورٍ لكلِّ صورِ الحياةِ على أرضِهِمْ، كما أن تعرُّضَ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ لتربُّصِ أعدائِهَا وعلى رأسِهِمُ الدولةُ الفارسيةُ بحدودِهَا جعلَ حكُومَتَهَا عاجزةً عن تحمُّلِ أعبائِهَا تِجَاهَ سكانِ ولاياتِهَا الذين تدهوَرَتْ معيشتُهم بعدما

تدهورَتِ الزراعةُ والصناعةُ والتجارةُ على أرضِهِمْ.

فقلتُ له : وهل أصابَ أرضَ مصرَ الزراعيةَ نَفْسُ التدهورِ الذى لَحِقَ بصناعَتِهَا وتجارَتِهَا منذُ بدايةِ القرنِ الثالثِ الميلادىِّ؟

فقال : انتهج الرومانُ فى تعامُلِهِمْ مع أراضى مصرَ الزراعيةِ سياسةً تختلفُ عن سياسةِ البطالمةِ الذين جمعوا تحتَ تصرُّفِهِمْ جزءًا كبيرًا من الأراضى كملكيةٍ خالصةٍ لهم، حيثُ عملت الإدارةُ الرومانيةُ على التخلُّصِ من أراضى الدولةِ وتشجيعِ ملكيةِ الأفرادِ وعلى طريقِ إقرارِ هذه السياسةِ لجأَ أباطرةُ روما إلى التنازلِ عن هذه الأراضى بثمنٍ زهيدٍ، مما أدى إلى ازديادِ الملكيةِ الخاصةِ فى عصرِهِمْ زيادةً كبيرةً.

فقلتُ له : وهل استمرَّتْ هذه السياسةُ قائمةً فى مصرَ تحتَ حكمِ أباطرةِ القسطنطينيةِ؟

فقال : أجَلْ، فعدا تعديلِ نظامِ الضرائبِ للأراضى الزراعيةِ فى عهدِ دقلديانوسَ لم يُدْخِلْ أباطرةُ القسطنطينيةِ أىَّ تغييراتٍ مؤثرةٍ على الزراعةِ فى مصرَ، واستمرَّتِ الملكيةُ الفرديةُ الخاصةُ فى ازديادٍ تحتَ حكمِهِمْ، حتى أن أراضىَ الدولةِ قد اختفت تمامًا ابتداءً من منتصفِ القرنِ الرابعِ الميلادىِّ.

فقلتُ له : وهل استفادت جموعُ الزراعِ المصريين من اختفاءِ أراضى الدولةِ وتحوُّلِهَا إلى ملكيةٍ خاصةٍ؟

فقال : إن أكثرَ هذه الأراضى قد ذهبت إلى غرباءَ أجانبَ قاموا بشرائِهَا واستغلوا ثرواتِهِمْ ونفوذَهُمْ وضعفَ الإدارةِ البيزنطيةِ فى توسيعِ رقعةِ ما يمتلكونَ من أراضٍ على حسابِ المساحاتِ الصغيرةِ التى يمتلكُهَا الزرَّاعُ المصريونَ.

فقلتُ له : وكيف استطاعُوا فعلَ ذلك يا نيلُ؟

فقال : لكى تيسِّرَ الإدارةُ البيزنطيةُ لنفسِهَا طريقةَ جمعِ الضرائبِ فى

القرى المصريةِ جعلوا مسئوليةَ جمعِهَا مسئوليةً جماعيةً يتحمَّلُهَا جميعُ سكانِ القريةِ ويلتزمون بتسديدِ أىِّ عجزٍ فيها، وفى الوقتِ الذى ينجحُ فيه عددٌ كبيرٌ من أصحابِ الاقطاعاتِ الزراعيةِ عظيمةِ المساحةِ بما يمتلكونَ من قوةٍ ونفوذٍ فى التهرُّبِ من دفعِ الضرائبِ تحمَّلَ صغارُ الزراعِ المصريين تحتَ تهديدِ الجندِ بالتعذيبِ دفعَ ضرائبِ أصحابِ الإقطاعاتِ علاوةً على



قطعه من النسيج المصرى - القرن الخامس

ضرائبِ ما يمتلكونَ من أراضٍ، ولأن أغلبَ هؤلاءِ الزراعِ البسطاءِ لم يكونوا قادرينَ على دفعِ ما يُقَدَّرُ عليهم من أموالٍ، اضطروا إلى التنازلِ عن ملكيةِ أراضيهم لأصحابِ الإقطاعاتِ نجاةً من تحملِ مسئوليةِ دفعِ الضرائبِ.

فقلتُ له : لذلك إذن كان اجتماعُك مع الزراعِ المصريين في هذه القريةِ يانيلُ.

فقال : أَجَلْ يا أَبَتِي، فما ينبغي لأبناءِ وأحفادِ الفراعنةِ أن يتنازلُوا عن ملكيةِ أراضيهِمُ التي ورثوها عن آبائِهِمْ وأجدادِهِمْ جيلاً من بعدِ جيلٍ، ليتحوَّلُوا من ملاكٍ أحرارٍ إلى مجردِ أتباعٍ أجراءَ لأصحابِ الإقطاعاتِ الذين سيطروا على أجزاءٍ كبيرةٍ من أراضي البلادِ حتى أن قُرًى بأسرِهَا صارت ملكًا للسادةِ وكبارِ الملاك.

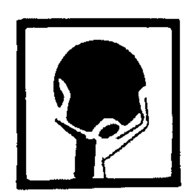
فقلتُ له : وهل تظنُّ أنك ستنجحُ في الوقوفِ أمامَ أصحابِ الإقطاعاتِ الزراعيةِ يا نيلُ؟

فقال : لقد بلغ من سلطانِ أصحابِ الإقطاعاتِ ومنهم صاحبُ الإقطاعِ في هذه القريةِ أن سيطروا على القرى التي توجدُ بها أراضيهم مكونين لأنفسِهِمْ حَرَسًا خاصًّا من الجنودِ المسلحينَ ومتخذينَ لأنفسِهِمْ محاكمَ وسجونًا خاصةً، لكن ذلك لايجبُ أن يمنَعَنِي من تنبيهِ جموعِ الزراعِ في بلدى للخطرِ المتمثِّلِ في تنازُلِهِمْ عن ملكيةِ أراضيهم حتى وإن أدَّى هذا إلى تعرُّضِي للمتاعبِ.

لم يستمرَّ حديثي مع نيلٍ بعد ذلك طويلاً، إذ تركتُهُ يعاودُ اجتماعَهُ بالزراعِ المصريين، بينما انطلقتُ في طريقي خارجًا من القريةِ، ولكنني ما كدتُ أقتربُ من حدودِهَا حتى التفَّ حولي مجموعةٌ من الجندِ، راح يشيرُ إليَّ أحدُهُمْ قائلاً: هذا الذي يحرِّضُ الزراعَ على التمسُّكِ بأراضيهِمْ وعدمِ التنازلِ عن ملكيتِهَا.



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطني حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



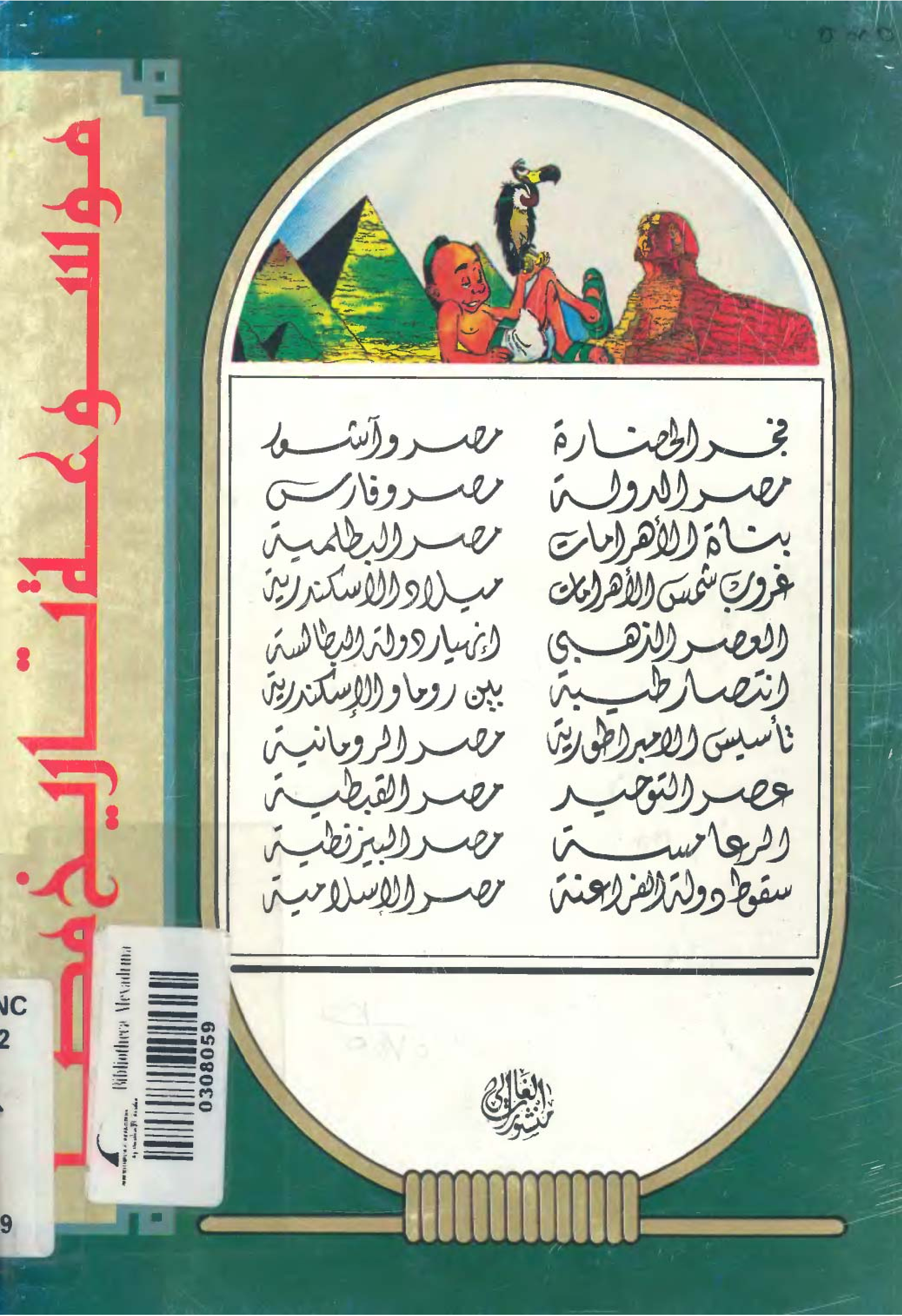
المكتب العربى المعارف
١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة
ت : ٢٤٢١٥٢٦

الناشر



«نيل وتاريخ»

م. الوحدة الوطنية العربية


فجر الحضارة
مصر الدولة
بناة الأهرامات
غروب شمس الأهرامات
العصر الذهبي
انتصار طيبة
تأسيس الامبراطورية
عصر التوحيد
الرعامسة
سقوط دولة الفراعنة
مصر وآشور
مصر وفارس
مصر البطلمية
ميلاد الإسكندرية
انهيار دولة البطالمة
بين روما والإسكندرية
مصر الرومانية
مصر القبطية
مصر البيزنطية
مصر الإسلامية
Bibliotheca Alexandrina
0308059